Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلاقات الأولى، تلك التي قامت بين الطفل وأسرة (آل باترنوس) من زاوية الانفتاح، والرغبة في الاندماج، وأشكال المعاملة المختلفة، علاوة على أثرها في الحوار وبيان الاختلاف (الدين، اللغة، العادات). ووجه العلاقة/ النموذج، تلك التي فرضت، بحكم التأثير، أشكالا من التجاوب والحب والاحتذاء. ووجه العلاقة/المجال، لأن بيت (آل باترنوس) صار، بالنسبة للطفل، بمثابة بيته الثاني («هؤلاء هم آل باترنوس، وذلك هو منزلهم الذي قضيت فيه وقتا ليس بالقصير من الطفولة») (ص 29).

يشبه المؤلف باب المدرسة بباب الحياة، وهو تشبيه مألوف، ولكنه معطى رمزي، بوصفه عاملا، للتدليل على التغيير الجذري الذي أحدثته في تكوينه الذاتي. إذ لم يكتف منها بالتعليم فقط، فقد أخذ منه الشيء الضروري، وتلك وظيفة من وظائفها، ولكنه جعلها أيضا مرادفا للصور الجديدة التي بدأت تغزو مخيلته بحكم بيئتها، فتحدث في نفسيته انقلابا في العواطف والأفكار والمعتقدات.

وظني أن موضوعات كهذه، ضمن الحلقة الأولى من حلقات التطور الذاتي، ترد في السيرة الذاتية، على لسان شخصية الطفل، لرسم مبلغ الأثر الذي كان لها في التوجيه وصياغة الوجدان الطفولي. ويقوم المؤلف بسرد هذه المعطيات في قالب حكائي ينبني على الاستذكار، بينما يتخلل هذا السرد، في كثير من مواقع الكلام، ما يحيل على زمنه في الحاضر، حاضر الكتابة، باستعمال صيغه المناسبة (الآن (ص9 و39)، اليوم (ص 17)). فليس الماضي وحده هو الذي ينحت صورة شخصية الطفل، بل وأيضا ما يلقي به المؤلف السارد من منظورات تمزج، إلى هذا الحد أو ذاك، بين شعوره بالطفولة المنقضية في الزمن، والصورة المستهامة المكونة عنها. بل ويجوز القول، حسب أكثر من قرينة في النص، إن صورة شخصية الطفل، من خلال الموضوعات التي كونت معرفته بنفسه وبمحيطه وبالعلاقات التي نسجها من حوله، ومن خلال الكتابة أيضا، تبدو في كثير من جوانبها من نسج «الذاكرة» المتبقية منها. أقصد أن صورة الطفولة هنا مركبة: بقدر ما تحيل على المجال الذي تطورت فيه ماضيا وواقعيا، بقدر ما تستظهر مضاعفها الحلمي المفكر فيه من طرف مؤلف يصوغ قسماتها في مبنى النص[1]. يقول عبد المجيد بن جلون : «فهل أنا الذي يكتب هذه السطور في المرحلة الرابعة، هو حقا ذلك الطفل الذي ترك عند السفح تلك الآثار ؟» (ص 278).

1 ـ قارن مع فيليب لوجون عندما يلاحظ بأن كتابة السيرة الذاتية، مهما حاول كاتبها الالتصاق بالواقع صادقا، فإنه يحس بأن كتابته هي التي تمنح الحقيقة أو القوة لحياته :
Moi aussi, Seuil 1986, Paris, p. 53